التحرير

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم السيد فخري شهاب السعيدي

أفاض سكان المدينة فى الحديث عن هذا الاختلاس فى خزينة الملك ، واتهامسوا بما سيلقاه « رئيس الحرس » من عقاب صارم إن لم يهتد إلى ذلك السارق الجرىء !

... وكان بالمدينة رجل غريب يدعى « فجرازن » جاءها متجراً بما معه من الحيل ، فاتهم بهذه السرقة ... واقتيد مصفداً بالأغلال إلى السجن !! وإن المسكين لسائر — فى أغلاله — وسط زحمة من المتفرجين إذ بصرت به « شياما الفاتنة » حين جلست تطل من شرفتها على الطريق ... فاضطربت لما رأت واستدعت إليها الوصيف تسأله عن هذا الشاب الماجد النبيل ، الذى يقتاده الشرط اقتياد اللصوص المجرمين ، من عساه يكون ؟ ! ثم أمرته أن يستدعى « الضابط » — باسمها — ليحضر إليها السجين

* * *

قال الضابط :

— جاءت متأخرة مساعدتك — ياسيدتى ! — وعلىّ أن أسارع بتنفيذ ما أمر الملك به ؛ ليس إلى غير ما ترين من سبيل

ولكنها ظلت صامتة ما تفمغم بلفظة ولا تجيب وأجاب السجين يخاطب هذه التى حسبها تتسندّر بالحديث عن أمر إفراجه ، قال : أى فضول هذا الذى بلغ بك أن تحضرينى أمامك لتتفكهى بالحديث عنى والعبث بى ؟

قالت ، وقد آلمها خطأه الذى وقع فيه :

أحقاً ما تقول ؟ إنى لو استطعت أن أستبدل بأغلالك حُلِىّ لفعلت !

والتفتت إلى الضابط ترضاه بالمال عساه أن يفرج عن هذا البائس المسكين ... ولكن الضابط انحنى لها وقال :

— ليس فى الامكان هذا ... إنه ضحية لهذه التهمة التى أُلصقت به ... غير أن أمر الملك واجب التنفيذ !

قالت : فأنا أسألك أن تؤجل ذلك إلى يومين آخرين ...

فرضي الضابط بهذا ... واستدار خارجاً والسجين معه !

* * *

انتهى « فجرازن » من صلواته وأدعيته وجلس ينتظر الصباح لينفذ أمر الملك فيه ... وإذا باب السجن يفتح بغتة فتظهر « المرأة » تحمل مصباحاً ينير أمامها الطريق ؛ وإذا « الحارس » يتقدم باشارة منها فيكسر الأغلال عنه

قال « فجرازن » :

— لقد أشبهت — أيتها الرحيمة بمجيئك هذا — نجمة الصبح تبشر المريض ، وقد أغمبطت عليه الحمى ، بمطلع الشمس وانجلاء ظلام الليل البهيم ، فشكراً .

قالت : أأنا حقيقة «رحيمة» ؟ وقهقهت ضاحكة حتى اغرورقت عيناها بالدموع من شدة الضحك ثم تنهدت وقالت :

— بل ليست فى هذا السجن صخرة أقسى من هذا القلب !

ثم أمسكت بيده مبتعدة به عن السجن ...

* * *

أشرقت الشمس على شاطئ « قارونا » ولم يك بالمرفأ غير قارب صغير كأنه كان بانتظارها

قالت « شياما » تخاطب صاحبها :

— تعال .. تعال أيها الشاب الغريب واركب .. لا عليك أن تعرف شيئاً ! ويكفيك — الآن — أن تعلم أنى «حررتك» من أغلالك ؛ ثم ها أنا ذي أقذف بنفسى فى القارب معك ...

وانطلق الزورق يجرى سريعاً فى التيار الزاخر

قال « فجرازن » :

— حدثيني أيتها الحبيبة ... عن المال الذى بذلته فأنقذت به حريتى ، وافتديت حياتى ؟ !

قالت : صه ! « ليس حديث هذا الآن ... »

وارتفعت الشمس فى السماء وجاء الظهر ... فرجع النساء القرويات وقد ملأن الجرار وأكملن استحمامهن ، فبقى شاطىء المسبح قفراً تغمره أشعة متوهجة كالنار ...

قال « فجرازن » يهمس فى أذن « شياما » — وقد كشفت الريح الهابة الشديدة قناعها فجلت محاسن وجهها :

— لقد « حررتنى » من أغلال لتوقعينى فى أغلال أشد منها وأحكم ؟ إنى لشديد الحيرة مما أنا فيه !

فأعادت المرأة نقابها على وجهها وقالت :

« وليس حديث هذا الآن » ... أيها الحبيب !

ثم يرخى الليل سدوله ويشمل بظلامه هذا العالم فتهدأ فيه الحركة وتضمحل الأصوات ، ولا يبقى فيه من آثار النور غير هذا الهلال النحيل ...

جلست « شياما » وقد أسندت رأسها إلى كتف صاحبها الشاب ، وأرخت ذوائب شعرها الفاحم الطوال ، فجللت جسدها ... وبدت كأنها منه فى ليل حالك داج ... قالت تحدث فتاها عن « تحريره » من السجن :

— إن مافعلته من أجلك كان شيئاً مروّعاً ... وأروع منه التصريح به إليك أيها الفتى المحبوب ... وكانت « شياما » وهى تحدث الفتى ممتقعة اللون واطئة الصوت من فرط ما استولى عليها من الاضطراب والهلع الشديد ؛ قالت : ولكني سأجمله لك فى بضع كلمات ...

— لقد أنقذك فتى آخر لا تعرفه ... اتهم نفسه لينجيك ، وتقدم بحياته هدية لى فافتداك ... إن خطيئتى التى اقترفت كان حبك داعياً لها ... أيها الفتى العزيز !

وكان الهلال قد غاب فساد المكان ظلام حالك رهيب ، وغمرته لجة عميقة من السكون ...

وسحب الشاب يده من خصر الفتاة ، وقد استولى عليه وجوم وحيرة أذهلاه عن الكلام ، وعما هو فيه ...

وعلى غرة منه ... أهوت المرأة على قدميه تستغفره قائلة :

— إغتفر لى خطيئتى هذه ... ودع العقاب لله فسيجزينى بما قدمت يداى من إثم أيها العزيز ...

قال — وقد سحب رجله من بين يديها فى عنف وثورة جامحة وغضب ، ظهرت آثاره فى صوته المبحوح :

... وتكون حياتى الشريفة هذه قيمة لخطيئة اقترفتها ؟ وإذن فالنفس الواحد على منها محرّم لا تجوّز فيه ؟!

... وطفر الشاب من القارب وأوغل في الغابة يبتعد ... حتى تأدى به السير إلى مكان فيها كثيف الأشجار ملتف الغصون ، استوقفه قليلاً ، فجلس على الأرض تعباً قد أعياه الطواف الشاق الطويل..

ولكن من ذا الذى كان يقتفى أثره جاداً في السير فى هذا الظلام لا تثنيه شدة التعب ، ولا طول الطريق ؟ كأنه فى اتباعه إياه ظله الذى لا يغيب ؟؟

* * *

صرخ « فجرازن » هائجاً متذمراً :

— ألست بتاركتى أنفرد وحيداً ؟

وفى لحظة خاطفة سريعة انثنت عليه فغمرته بوابل من قبلاتها وأحاطت جسمه بأنفاسها الحرار وقالت تجيبه :

— كلا ... لن أتركك أيها الحبيب ... لقد أثمتُ وكان هذا فى سبيلك أنت .. فاصنع ماتراه .. اضربنى إن بدا لك .. أقتلنى إن أردت ! !

... واعترت ظلام الغاب « رعشة » سرت فى جوانبه . . حتى وصلت إلى ما تحت الأرض من جذور .. وارتفعت فى الفضاء شهقة .. وسقط على الأرض جسمه .. ثم عاود الغابة وجومها العميق ..

وبرزت الشمس من خدرها ، وأرسلت شعاعها ينير أمام « فجرازن » الطريق ، فخرج من الغابة — على غير هدى — يسير على الشاطىء الرملى مسرعاً لا ينى ، ولا يرتاث فى السير ... حتى بلغ القارب الصغير . وقد مضى النهار وظهرت كتائب الظلام فى الفضاء ... وينظر فى القارب فإذا حجل [1] موضوع على الفراش هناك ... وإذا هو يجذب « الحجل » إلى صدره فى عنف شديد يخدش من شدته صدره ... ثم يدفن وجهه فى طيات ملاءة من الحرير كانت فى زاوية من زوايا القارب الصغير ... ليستروح عبير جسم عزيز عليه حىّ ... واحتجب القمر وراء الأشجار فعمّ الظلام الفضاء وساد الهدوء ...

ووقف «فجرازن» وأدار وجهه نحو الغابة وصرخ:

— تعالى أيتها الحبيبة ... تعالى إلىّ

وعاد السكون كما كان عميقاً يسود الفضاء فإذا شبح مقبل يسعى من الغابة حتى انتهى إلى شاطىء النهر .

— تعالى أيتها الحبيبة !

— ها أنذي جئت أيها العزيز ... إن يديك العزيزتين قد حاولتا أن تقتلاني ، ولكن عمرى فى الحياة قد امتد

ووقفت « شياما » قبالة الشاب فألقى إليها بنظرة ، وتقدم خطوة إلى الأمام ليأخذها بين يديه ... وهم أن يفعل ذلك ... و ... ولكنه دفعها عنه صارخاً وارتد :

— كيف ؟ كيف جئت إلىّ ؟

وأدار وجهه ... وقال :

— ابتعدى ... اذهبى عني

وبقيت الفتاة جامدة مكانها برهة ثم انحنت أمامه ... ورجعت سائرة تختفى فى الغاب اختفاء الأحلام ...

و «فجرازن» فى القارب يبصرها مكلوم القلب محزون النفس مما يجد من ألم والتياع !

فخرى شهاب السعيدى

(١) حلية من ذهب أو نحوه يزين بها النساء أرجلهن